التدبير المنزلي (١)

وارتقاؤه بارتقاء العمران

وُلِدَ على هذه الكرة ملايين وملايين الملايين من بني البشر وغادروها من بدء الخليقة الى اليوم . فاجيالٌ تخلف اجيالاً وامم تخلف امماً وبين هذا وذاك تنازع دائم وكفاح متواصل انتقلا بالانسان من معيشة ترى السذاجة والخشونة فيها — وتلك في معيشة القبائل الدنيا وتدابيرها البسيطة — الى نظامات المدنية والعمران التي نراها اليوم مقرونة باليسر والرخاء ومستوفية لشروط الاقتصاد . هوذا المدن الكبيرة تعجُّ بالناس ونرى الحياة العملية تتسابق فيها وتتبارى . هنا خطوط من الحديد لاسمة تسير القطرات عليها بقوة القحم الحجري المستخرج من مناجم مظلمة لا يكاد يبصر لها غور فهذه الجواهر السوداء كانت اشجاراً باسقات أتدمجت في جوف الارض فضمتها الحرارة وعادت يد العمران اليوم فاستخرجتها واستخدمتها لمنافع الانسان . الشمس انشأتها وجوف الارض ضمها ويد الانسان الى النور اعادتها

وهناك اراضٍ تغلُّ التناطير المقنطرة من الحبوب والاثمار فتحضنها معد المدن التي لا تعرف شبعاً ولا رياً . وتضمحلُّ كأنها لم تكن شيئاً . تلك المدن التي يراها من يشرف عليها بحراً امواجهُ من الحجارة . وغابةً غياهبُ اشجارها بروجٌ ومدافن . ارتفعت نوقها المعامل وتصاعد منها دخان يعقد في الجو قباباً وانبعثت عن جوانبها اعمدة من البخار لا تلبث ان تتحوَّل الى قطرات من الندى تتألق في اشعة الشمس فتبرز هذه المدن المزدحمة بالاعمال والاشغال في منظر كما تقادم عهدهُ زادهُ بهجةً وجمالاً وقال لسان حاله رب زدني كمالاً

تلك هي التدابير الجديدة التي استنبطتها يد الاختراع في هذا العصر المزدهر بالعلم والعرفان فذلَّلت عناصر الطبيعة لخدمة الانسان

ونرى المعيشة في بلدان الريف والمدن الصغيرة آخذة باسباب الارتقاء الى حسن ومن حسن الى أحسن . وتلك هي سنة العمران . نرى اهلها يجاهدون لمزيد الحسن في الاقتداء باهل المدن واقتفاء اثرهم تطلباً للبسط في الراحة وبلوغ الهناء

على اننا نرى بعض هؤلاء الاقوام قد اضناهم السير في هذا الجهاد والتنازع في هذا البقاء فهم يتمنون لو صافقتهم الايام ليعودوا الى بساطة جرى عليها اسلافهم . فما مثلهم في

(١) خطبة القتها حضرة السيدة رحمة صروف في الجامعة المصرية في ٦ مارس سنة ١٩١٢

ذلك الأ مثل من يتمنى ان ترجع عقارب الساعة القهقرى من تفسها او ان يقف هذا الفلك المدار عن مسيره

ان كثيرين يتذمرون من المعيشة التي يعيشونها اليوم ويرون ان ذلك الزمن الذي تقادم عهده — اذ كان اهله على بساط الكسل نائمين وفي اماكنهم مستريحين — يفضل عصرنا هذا عصر العمل والجهاد . فهل هم على حق في ما يرون . وماذا يقول هؤلاء لو تصفحوا سير اسلافنا القدماء ورأوا انهم كانوا يعانون المصاعب والمشاق ويتمنون ما يتمنونه هم ايضاً من الرجوع الى عيشة اسلافهم

* * *

لما كان لكل دولة حال من المدنية والحضارة فالجديد ينسخ القديم والملح يحل محل القبيح، طبقات من البشر تطلب الارتقاء وتطمح لان تعيش في سعة ورخاء

في الانتقال من تلك العصور المظلمة التي كانت مخيمة على بني البشر الى عصر النور والعلم عصر ارباب الرؤوس المفكرة والادراك الواسع . في هذا الانتقال او النزوع البشري من المعيشة الوضيعة والانحطاط المتناهي الى اوج المدنية حيث تتوفر اسباب الراحة والرفاهية نرى ربة المنزل في الحقيقة وواقع الامر في المحور الذي تدور عليه جميع تلك الامور بل في الدعامة العظمى التي شيد عليها بنيان هذا التقدم الباهر والارتقاء الزاهر

فالزوجة مرآة تنعكس عنها حوادث ذلك الانتقال الذي كان يقع في باديء الامر في الحراج والحقول وقلما كان يسير معها او يصحبها الى كوخها او بيتها الحقير حيث تكون مع اولادها في مأمن حتى في عصر الخشونة والهمجية لانها كانت تعدّ شيئاً يجب ان يصان ولا يمس ولو كان المهاجم عدوّاً لدوداً . ولما كانت المرأة بطبيعة الحال الحارس الامين على المنزل والعائلة باتت بفضل الامومة واسطة للارتقاء وعقداً للهيئات الاجتماعية

كانت الام في زمن من الازمان قبل مجيء دور سيادة الاب صاحبة السيادة فكانت اعمالها في تدبير منزلها لا يعرف لها حد لاتساع نطاقها وامتداد رواقها بل كانت اكثر مما هي اليوم . فكانت تقصد الحراج للصيد والتنقص وساحات القتال للدفاع عن الوطن وكانت ايضاً تقوم بسائر الاعمال التي يقوم بها الرجال المتازون بقوة قلبهم وشدة بأسهم . ويظهر مما سطره المؤرخون القدماء انها كانت تقيم حفلات الافراح والاتراح وتعنى بالمواشي وتغزل وتنسج وتصنع الآنية الخزفية وتخدم الارض بالحرث والفلح . وكان بناتها يعاونها في هذه الاعمال . على ان العصر الذي سادت فيه الام او العصر الذي تحررت فيه الزوجة من

ربة زوجها تجاوزت فيهِ حدود اختصاصها تجاوزاً لم تحلم بهِ اليوم النساء المطالبات بحقوق الانتخاب في انكلترا

ولكن تعديها ذلك القدر او خروجها عن دائرة اختصاصها تلاشى بعد ذلك ولا تزال نرى بقية من انحطاطها في العنصر البولوني والعنصر الاسترالي وبعض قبائل هنود اميركا حيث تقسم الاعمال بين الذكور والاناث طبقاً لقوانين بلدانهم وعاداتهم . ويظهر من هذا التقسيم انهم لم يراعوا فيهِ مجرى الطبيعة وبعبارة اجلى انهُ لم يتسنَّ للباحثين في الآثار القديمة ان يثبتوا لنا ان الاعمال السهلة الهينة كانت دائماً من نصيب الجنس الضعيف . بينما نرى اعمال تدبير المعيشة قد انقسمت بطبيعة الحال منذ ذرَّ قرن شمس المدنية الى قسمين فاصاب الرجل قسم السعي والتحصيل والمرأة قسم التدبير واعداد الحاجيات

بيد اننا نرى هذين القسمين ظاهرين بائم مظهر بهما ومنفصلين كل الانفصال عند العناصر المشار اليها . فقد قال للفيجتن الرحالة الافريقي الشهير انهُ عاين الرجال في احدى جهات افريقية يتضورون جوعاً لانهُ لم يكن لهم زوجات يطحنَّ الحبوب ويصنعنَ الخبز مع ان الحبوب كانت متوفرة في بلادهم وحجتهم في ذلك ان الاعمال منقسمة في نظامهم بين الرجل والمرأة فلا يتعدى احد الفريقين على اعمال الفريق الاخر . ولم يقتصر هذا الانقسام على طحن الحبوب وصنع المآكل بل اننا نرى في بعض الجهات فرقاً عظيماً بين الرجل والمرأة في تناول الطعام . فالاناث يأكلن وحدهنَّ والرجال يأكلون وحدهم ايضاً وقد ادار كلٌّ منهم ظهرهُ للآخر وربما اختلف صنف الطعام الذي يتناولهُ احد الفريقين عن الصنف الذي يتناولهُ الفريق الآخر . ولا تزال نرى الى اليوم بعض سكان اميركا الجنوبية يأخذ كلُّ واحد من افراد العائلة الواحدة منهم قسماً من الطعام ويأكلهُ منفرداً عن الآخرين . وغني عن البيان ان في تناول الطعام على هذه الحال شبهاً من الغريزة الحيوانية في الانسان

فهذا الانفصال او الانعزال بين الجنس الواحد والآخر في عائلة واحدة يبلغ حداً يقضي بالعجب فبين هنود اميركا الشمالية لا نرى في المنزل شيئاً مشتركاً فكل متاع فيهِ لهُ صاحبهُ وكل واحد فيهِ يعرف مالهُ . واذا اعطى الوالدون الاولاد شيئاً منوا بهِ عليهم

وكثيراً ما يحمل زوج الى زوجهِ او احد اولاده بعيرهُ فرسهُ ليركبهُ ويذهب الى الصيد . واذا ولدت قطة في البيت كان لكل واحد من العائلة جرو . وكذلك الحال في فراخ الدجاج . واذا اراد احد ان يشتري دجاجة وفراخها من عائلة وجب عليهِ ان يساوم جميع افراد العائلة على ثمنها

مرَّ بالجنس البشري حين من الدهر كانت علاقة الام باولادها ضعيفة جدًّا فكان الاحداث يخرجون عن طاعة والديهم و يلجأون الى بيوت تكون مشتركة بينهم للعمل وقضاء الوقت بالرياضة والمعب

لا مشاحة في ان اعتزال البنين على هذا الحال يكون عثرة تلقى في سبيل ارتقاء التدبير المنزلي والمعيشة العائلية . ولقد كان ذلك متبعًا قديمًا عند المصريين والبابليين واليونان بل كان عامًّا في سائر البلدان التي كانت معروفة في ذلك الزمان

كان الرجل من القدماء يتخذ نساء عديدات اذا استطاع و يلد اولادًا كثيرًا . وكان ذلك عندهم دليل القوة والسلطة والجاه . فكان للواحد غير زوجاته الشرعيات سراري كثيرات وقد اشار واضع قصة تلماك الى تقلص سلطة المرأة وتعاظم سيادة الرجل بقول تلماك لامه بنالوبي « اذهبي الى البيت وديري اعمالك من غزل ونسج وما ماثل ذلك ولاحظي الخدم وعليهم فالقول الآن للرجال وانا في طليعتهم والسيادة في البيت لي وحدي »

نعم ان حرية المرأة ومنزلتها في المعيشة الاجتماعية انحطت كثيرًا في ذلك الزمان حتى تلاشت فكانت اذا غادرت منزلها تقنَّعت ولا يزال القناع عادة في الشرق وبعض البلدان الواقعة في المناطق الحارة حيث يبلغ الصبيان والبنات اشدَّهم بين الثانية عشرة والرابعة عشرة . وزد على ما تقدم ان المرأة كانت تخاطب زوجها بعبارات التخضع والتبجيل لانها كانت ترى نفسها مستعبدة او مملوكة له

كان الفتيات في عهد قدماء اليونان يعشن في انفراد وانعزال . وكنَّ يحسبن الفتاة وردة برية في حديقة غناء تظلُّ في سبات عميق حتى يوقظها الخطيب . ولم يكن القانون اليوناني يؤذن لها في تجاوز باب بيتها فتقضي يومها وسهرتها في الغزل والنسج وعمل الملابس لجهازها . واذا بلغت العشرين من عمرها خافت ان لا يتقدم احد على التزوج بها . قال افلاطون « متى بلغت الفتاة العشرين بلغت السن الملائم للزواج » وكان الوالدون يعدون بناءها في البيت بعد بلوغها العشرين شرًّا مستطيرًا ويفكرون على الفتاة حريتها الا يأذنون لها ان تتعرف بالشبان وتختلط بهم . فاذا سمح للفتاة بالرقص امام الضيوف او بالسير في موكب عدَّت سعيدة الجد ميمونة الطالع . قال ثيوفراستس الفيلسوف اليوناني متذمرًا من تكد الدنيا على شبان عصره « ان الشاب لا يتسنى له انتخاب زوجته وشريكة حياته فهو مضطر ان يخضع للقدر فيتزوجها من غير ان يختبر اخلاقها أصالحة ام شريرة أمتواضعة ام متكبرة فاضيل والخير واللابس والكرابي والآنية الخزفية يرادا من يريد شراءها واما الزوجة

فلا تجوز رؤيتها قبل التزوج بها . فالقول بان الفتاة من عائلة عريقة في المجد ليس دليلاً على حسن طباعها وجمال وجهها » . انتهى

اما علاقة الزوجة بالتدبير المنزلي في ذلك الاوان فنظهر لنا مما رواهُ اكسنفون قال . ألقي على سقراط السؤال التالي «أانت الذي دربت زوجتك على تدبير منزلها ام هي التي تدربت على ذلك لما كانت في بيت والديها

قال سقراط : « كيف لرجل ان تكون زوجتي خبيرة بامور البيت مدربة عليها عارسة لها وهي لا تكاد تبلغ الخامسة عشرة من عمرها وقد كانت سجينة في بيتها يحتقرها والداها حتى لا ترى الشمس وجهها . أليس محتملاً ايضاً انها لم تسمع شيئاً ولا سألت عن شيء »

وروى التاريخ انهُ بعد ما تزوج سقراط وقبل ان يخبر زوجتهُ بواجباتها المنزلية قدّما ذبيحة للآلهة وسجدا راكعين يتضرعان لها و يبتهلان لتجعل حياتهما الزوجية حياة سعيدة

ولما مضى على زواجهما زمن سألها قائلاً اخبريني أتعرفين لماذا تزوجتك ولماذا وهبك اهلك لي ؟ واذا رزقنا الآلهة اولاداً ألا يجب علينا ان نربيهم ونهذبهم احسن تهذيب . هذا البيت لنا كليهما فينبغي ان نُعنى بهِ ونديرهُ . فقالت زوجتهُ وبما اساعدك وانت عمادُ البيت وعمادهُ وعليك المتكل ووالدتي لم توصني الاَّ ان اكون عاقلة طائعة لك ومحبة . قال نعم الوصية ولقد اوصاني والدي بهذا ايضاً فاعلمي ان العقل والحكمة يشملان كل ما يطلب من الزوجة كالاعتناء بما يملكان والاجتهاد في استثمارهِ وانمائهِ . قالت وما الذي استطيع عملهُ في هذا الشان . قال ان في امكانك بفضل ما وهبتك الالهة من الادراك والفهم ان تحذي كل عملٍ تطلبهُ الآلهة منك فالزوجة في البيت يجب ان تكون كملكة النحل في القفير . ان ملكة النحل هي التي ترشد النحل حين خروجهِ من القفير وتقود العامل منهُ في داخل الخلية وتدلهُ على ما يؤتى بهِ من الخارج وتوزع قسماً منهُ على النحل للغذاء بالعدل والتقدير وتدخر القسم الباقي الى يوم الحاجة والشدة

«ان بيتك يقتدار من الصوف مثلاً يجب ان يظلّ ما في البيت من المآكل صالحاً للاكل . واذا جاء يوم الغسيل والتنظيف وجب ان لا يكون ذلك اليوم يوم جوع في البيت

فاعلمي ان الرجل مهما تكن في البيت لا تنفع الاَّ اذا ساعدتهُ زوجتهُ ومدت يدها الى العمل فيهِ . والاَّ كان مثلهُ مثل من يحاول غرف الماء بالغربال . ومما يسهل عليك ادارة شؤون منزلك ان تراعي ثلاثة امور تتعلق بجواري والخدم اولاً انيري عقول الاغبياء منهم . ثانياً اغرسي الامانة في صدورهم . ثالثاً كافئي العاقلين والمجتهدين وعاقبي الاردياء والمهملين»

قالوا التاريخ يعيد نفسهُ فما اشبه عصر الرومان الذي يسمونهُ العصر الذهبي بهذا العصر فقد كانت المرأة في بدء ذلك العصر تعمل بلا انفة ولا كبرياء ولا صلف ولا خيلاء فتقوم بجميع اعمال بيتها. وكان لغنية منهن خدم وحشم فلا ينبثق الفجر حتى توقظهم قائلة لهم افيقوا فان الذي يظل نائماً منكم يستوجب لوماً شديداً

وانتقلت من هذا الدور الى دور الترف والقسوة فكانت تنتهر الخدم انتهاراً وتوقظهم متهددة اياهم بالضرب ومعتدة عليهم في كل اعمالها البيتية . فقد روى التاريخ عن المرأة في ذلك الزمان انهُ لم يكن للبناء حديثٌ الاَّ التذمر والتبرم من كسل الخدم وتوانيهم .

وبلغت بهنَّ الحال ان صرنَ يصرفنَ معظم اوقاتهن في الزينة الخارجية وحكاية القصص والاحلام مع ان الاعمال التي كانت تطلب من ربات المنزل في ذلك الحين كثيرة جداً . فقد كان الواجب عليهنَّ ان يغزلن للصوف وينسجن الملابس وينفضن الظلال ويلطفنها بالمراوح بايديهنَّ ويعجنها ويصنعن الخبز ويخبزنهُ ويملأنَّ جرار الماء من الينابيع والانهار ويشعلنَ النار بقدح الزناد والصوان وما شاكل ذلك من الاعمال البيتية التي استراحت منها ربة المنزل في هذا العصر بتقدم الصنائع والفنون وتوفير اسباب المعيشة

ويدلُّ التاريخ من كتابات ورسوم عثر عليها ان طريقة غسل الملابس لم تكن في تلك الايام تختلف كثيراً عن طريقة غسل النلاحين للملابس في هذا القطر وفي جهات من القطر السوري ايضاً فقد كنَّ يضعن الملابس في حفر مملوءة بالماء ويعركنها بارجلهنَّ ويغبطنها بالمغابط حتى اذا رأينها نظيفة يبسطنها على الصخور ومتى جفَّت طويتها ووضعنها في صناديق

اما صنع الملابس فلم يكن امراً صعباً فقد كنَّ يعددنها وهي لا تزال عماك فكن يصنعنها على قدر الجسم او اوسع قليلاً . واذا زارت صديقةٌ صديقةً لها لم تكن هذه الزيارة لتجتنبا عن عملها بل كانت ترحب بزائرتها وهي مواصلة عملها

ولقد شكا سيونيدس من المرأة الكسول التي كانت تدني كرسيها من الموقدة لتتدفأ مع انها لم تكن تقف امام موقدة (كانون) الطبخ خوفاً من ان يسمرَّ وجهها

ويظهر ان النفور من الزواج والخوف من عبئهِ كانا فاشيين في عهد الرومان واليونان القدماء وكثيراً ما كان كتابهم يتذمرون ويتضجرون من بذخ النساء بارتداء الملابس الغالية واسرافهنَّ بتقديم الذبائح للآلهة ومن الاجور الباهظة التي كنَّ يتقدنها العرافات او الدجالات

ثم ان الزواج غير الشرعي واقتناء السراري الجميلات — كل ذلك كان مألوفاً في ذلك الزمان

وما زال المرأة في عصر الرومان احتفاظها بطهرها وعفافها . فقد روى التاريخ ان الفتاة لكرجيا طلبت من ابيها ان يقتلها لما هددت بمس طهارتها . ولكن هذه الاخلاق الفاضلة تغيرت في المرأة الرومانية تغيرها من العمل والاجتهاد الى التواني والاسراف على نحو ما ذكرت آنفاً

وظل تيار المدنية والعمران وعيشة البذخ والرفاهية يتوفران ويقويان في تلك الممالك حتى هبَّت عليها عواصف قبائل الشمال التي كانت ممتازة بقوتها وصولتها ومعتادة الالعاب الرياضية والحروب وبعيدة عن الانهماك في الملاذ مما جعلها ابسل من الرومان واقوى من الامم المتاخمة للبحر المتوسط فنشبت بين الفريقين حروب طاحنة كان سببها ان قبائل الشمال طمعت بأستيطان بلاد اوفر من بلادها رخاء وامناً معيشة واطيب مقاماً . ولكن دولة الرومان كانت لا تزال قوية وغنية بمستعمراتها الواسعة ولم يكن قد حان الاوان لزوال مجدها ونقلص شوكتها فتغلبت على تلك القبائل واخضعتها . وما قصدت بذكر هذه الحروب الاَّ لاقول ان نساء تلك القبائل اللواتي كنَّ مرافقات لازواجهنَّ كنَّ حينما يأْكدن انتصار عساكر الرومان على رجالهنَّ يقتلن اولادهن و ينتحرن تخلصاً من وقوعهنَّ سبايا في ايدي الرومان

نبأ من اليابان

درس في التدريس

تفتح تقرير نظارة المعارف او كتاب الاحصاء السنوي العام فتجد الجامع الازهر معدوداً بين المدارس الجامعة وكذلك الجامع الاحمدي . وتأتيتا نشرات من وقت الى آخر عن بعض المدارس الخصوصية وهي تعتبر نفسها بالمدارس الجامعة او الكلية بل كثيراً ما نرى بعض الاور بيين يتلقبونها ويعدون بعض مدارسنا بنعت الجامعة فيخدعوننا فوق ما نخدع به انفسنا . وليس في القطر المصري الآ مدرسة واحدة سائرة في خطط المدارس الجامعة على قلة اساتذتها وقلة طلبتها، وقد قرأنا في خلة العام الاميركية مقالة عن جامعتي اليابان فرأينا ان نلخصها في ما يلي ليرى ابناء العربية ما معنى المدرسة الجامعة والى اي حد وصل اليابانيون الذين دخلوا ابواب العمران الحديث بعدنا

عند اليابانيين جامعتان كبيرتان جامعة طوكيو وجامعة كيوتو وهم ينشئون الآن جامعتين